في العلاقات الزوجية

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

في عام ٢٠١٩، أصدر غبطة البطريرك يوحنا العاشر والمجمع الأنطاكي المقدس رسالة رعوية هامة بعنوان: "العائلة، فرح الحياة." وقد نالت هذه الرسالة بركة واعتماد ونشر من قبل البطريرك والمجمع المقدس، وهي تعلن تعليم إيماننا الأرثوذكسي حول الحياة العائلية. وبذلك، تُعدّ عونًا كبيرًا لجميع المؤمنين الأرثوذكس لفهم تعليم الكنيسة المقدسة فيما يخص الحياة العائلية والعديد من القضايا التي نواجهها في عالمنا اليوم.

هناك الكثير من الالتباس في الثقافة المعاصرة بخصوص قضايا الجنس والزواج والأبوة. فحتى أبسط الافتراضات الأخلاقية والدينية بشأن العلاقة بين الرجل والمرأة باتت موضع تشكيك شديد في بعض المجتمعات. ولكي يعيش المسيحيون الأرثوذكسيون بأمانة في سياق اليوم، يجب أن نتذكر كيف استخدم الرب مراراً وليمة العرس بمثابة علامة على الملكوت السماوي (متّى ٢٢: ١-١٤)، وكيف حوّل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل (يوحنا ٢: ١-١١). وكما علّم الرسول بولس، فإن العلاقة بين الزوج والزوجة هي علامة على العلاقة بين المسيح والكنيسة (أفسس ٥: ٢١-٣٣)، والزواج ذو عمق روحي عظيم حتى إن اكتمال الملكوت السماوي يوصف بأنه "عرس الحَمَل" في سفر الرؤيا (رؤيا ١٩: ٦-٩).

إن استخدام الصورة الزوجية بمثابة علامة نموذجية للسقوط ليس صدفة، إذ إن الاتحاد الأصلي بين الرجل والمرأة في الفردوس قد تحطّم بعصيانهما. وتشهد روايات العهد القديم، والتحديات الرعوية التي تناولها الرسول بولس، والخبرة الإنسانية المشتركة حتى اليوم على هذا الانكسار المأساوي في العلاقة بين الزوجين. وبصفته آدم الجديد، جعل الرب شفاء هذا الاتحاد المضطرب ممكناً، بناءً على طلب والدة الإله، حواء الجديدة، في عرس قانا الجليل. وببركته، استُعيد الزواج باعتباره طريق لعودة الرجل والمرأة إلى الفردوس وعلامة لخلاص العالم.

في خدمة الإكليل الأرثوذكسية، يُتوَّج العروسان باسم الثالوث القدوس. واتحادهما ليس مجرد عقد قانوني أو مؤسسة اجتماعية، بل هو دعوة للنمو في شركة مع المسيح في كل جانب من حياتهما المشتركة. وهما، إذ اتحدا كـ "جسد واحد" في جسد المسيح، يُدعيان إلى شهادة المحبة المضحّية والأمانة، عن طريق موتهما عن عبودية الأهواء. وتتطهر رغبات قلبيهما وتتنقى بتدريب كل منهما لنفسه على محبة المسيح وخدمته من خلال الآخر وفيه. كما تعكس الطلبات الكثيرة في صلاة الإكليل، من أجل بركة الأولاد، الطبيعةَ التي تتسع لمحبة الله التي يشتركان فيها كشخصين. أما فرص الشفاء من الأهواء، من خلال الجهاد النسكي في الخضوع المتبادل، ورعاية الأولاد، وتقديم مصلحة العائلة على المصلحة الشخصية، ونقل رحمة الرب المضيافة إلى القريب، فهي لا تُحصى. وكما تقول الرسالة الرعوية "العائلة، فرح الحياة": «في هذا السياق، تذكّر [الكنيسة] بأن المحبة الزوجية لا تستعلن حضراً بالممارسة الجسدية، بل بالحب والاحترام المتبادلين يومياً ببذل الذات الذي يشمل ويطال كل أصعدة الحياة ووجوهها ويضفي عليها رونقها البهي» (فقرة ٣٣). وقد علّم القديس يوحنا الذهبي الفم أن الأزواج الذين يستجيبون بأمانة لفرص النمو في القداسة من خلال الزواج قد يبلغون مستوى من "الكمال ينافس أقدس الرهبان" (العظة ٢٠[1]).

كما يتبين من الطلبات التي ترتل في خدمة الإكليل، فإنّ الأرثوذكسية لا تُعلّم بأن العلاقة الجنسية الزوجية خطيئة بأي شكل، ولا أن الجماع في الزواج هو لأجل إنجاب الأولاد فقط، كما قال التقليد الأوغسطيني في الغرب. ولا نجد في العهد الجديد أي انتقاص من الجنس في الزواج أو القول إنه يحتاج إلى تبرير عبر الإنجاب. لا بل إنّ الرسول بولس يحذّر من الامتناع المفرط عن العلاقات الزوجية: «لا يمتنع أحدكما عن الآخر إلا على اتفاق وإلى حين، حتى تتفرغا للصلاة، ثم عودا إلى الحياة الزوجية العادية لئلا يعوزكم ضبط النفس، فتقعوا في تجربة إبليس» (١ كورنثوس ٧: ٥). كما ينبغي أن يُمارس صوم الزواج في الأرثوذكسية بحرية وباتفاق متبادل بين

[1] *Popular Patristics Series*, volume 7, pages 61–62.

الزوجين بحسب حالتهما الروحية، لا كقانون صارم. فالتشدّد النسكي الخاطئ في هذا البعد الحميم قد يؤدي إلى نتائج كارثية تعيق الشفاء والخير للجميع.

وبينما يُعدّ الأولاد أحد أعظم بركات الزواج، وتشجّع الكنيسة الأزواج على أن "يثمروا ويكثروا"، لا توجد قوانين كنسية تحرّم استخدام وسائل منع الحمل غير المُجهضة من قبل الأزواج، وقد عُرفت بعض هذه الوسائل في العصور القديمة. تصف قوانين الكنيسة بالتفصيل المخالفات الجنسية، لكنها لا تذكر شيئًا عن تحديد النسل سوى إدانة الإجهاض. قد تعكس بعض إدانات منع الحَمْل الصادرة عن بعض آباء الكنيسة خلطا بينه [منع الحمل] وبين الإجهاض نظراً لمحدودية المعرفة الطبية آنذاك. وكما تقول رسالة "العائلة، فرح الحياة" بشأن تنظيم الأسرة: « أمّا التنظيم فيعني أن تتخذ كلّ أسرةٍ قرارها الخاص في صلاة، وبالتشاور مع الأب الروحي للعائلة أو كاهن الرعيّة، وذلك بناءً على ظروفها الروحيّة والصحيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة» (فقرة ٣٣). وهذا يعكس حرية الزوجين كشخصين يقدّمان نفسيهما لله قدر استطاعتهما في ضوء نضجهما الروحي والتحديات العملية التي يواجهانها.

ومن خلال تعاونهما الحر مع بركة الرب، يمكن أن يصبح كل بُعد من العلاقة بين الزوجين وسيلة لخلاص العالم. ومع حياة مشتركة موجّهة نحو الملكوت السماوي، يسير الزوجان معاً في طريق شفاء النفس وتحقيق مقاصد الله الصالحة لأولادهما وأفراد عائلتهما وجيرانهما. إن الذين يعيشون جهادات وأفراح الزواج بهذه الطريقة يُهيّئون أنفسهم لقبول الدعوة كي يكونوا ضيوفاً في "عرس الحَمَل."